الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ

محمد سيد حاج

رحمه الله

درس

إلى متى الغفلة

للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله

نص مفرَّغ من التسجيل وحُرِّر للقراءة: صُحِّحت فيه الهمزات والترقيم والآيات، وحُذفت مواضع لم يتبيّن فيها الكلام. المرجع هو التسجيل الصوتي.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. الجمع الكريم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في عصر الطغيان المادي، واستحكام الغفلة، وقسوة القلوب، وجمود العيون، يحتاج المسلم إلى من يوقظه وينبّهه ويذكّره، ويأخذه من أوحال المادية ومن مستنقعات الغفلة. إذ إن كثيرًا من الناس يعيش في عصرنا حياةً هي أقرب إلى حياة الآلة والروتين: في مفردات تعامله، في أنماط سلوكه، في مفردات ألفاظه. يقوم الصباح الباكر ويرجع المساء المتأخر، يجرجر أذيال التعب، يريد سريرًا يخلد به إلى الراحة والنوم ليقوم في ذات الدوامة والطاحونة. وهذا أنسى الإنسان كثيرًا من المعاني الروحية، وكثيرًا من المسائل الغيبية التي يقوم عليها الدين، بل ثوابت العقيدة تقوم على الإيمان بالغيب: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

والإيمان بالغيب منه الإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب السابقة، والإيمان بالرسل الذين نسمع عنهم أخبارًا ونقرأ عنهم قصصًا. والإيمان بالآخرة أجلّ أنواع الإيمان بالغيب. فالآخرة بدءًا من الروح التي هي في الحياة أمر أشبه بالغيب، ومرورًا بالموت وأسراره التي تكتنفه؛ إذ إن الموت، مع وضوحه وبيانه، يظل غيبًا من الغيوب. الموت لغز من الألغاز المحيّرة عند الماديين، لكنه عند المؤمن لا يمثّل الموت إلا مرحلة وانتقالًا، وذلك بأجل مكتوب عند علّام الغيوب: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾.

ولذلك بدءًا من هذا الموت، ومرورًا بالقبر وما فيه من الأحاديث والأنباء، وما فيه من النصوص والأدلة، وقيام الإنسان يوم القيامة، وذلك بعث ونشور، هو أن يقوم الإنسان، مجرد القيام. وجمع الناس: حشر، إذ إن الناس يقومون في بقاع متفرقة وفي أنحاء مترامية من أنحاء الدنيا، فجمع هؤلاء في مكان واحد يسمى حشرًا، وقيامهم من قبورهم يسمى بعثًا ونشورًا. ومرورًا بالميزان، الذي هو ميزان الأعمال وميزان الأعيان: للأعمال ميزان، ولكل فرد من أفراد البشرية ميزان يختص به، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ...﴾، وليس الميزان الواحد. أما قوله تعالى عن الميزان: هذا عن الميزان الجنس، جنس الميزان. أما البشر جميعًا فلكلٍّ ميزانه: ميزان الأعمال الذي توضع فيه الصحائف، وميزان الأعيان الذي يوزن فيه البشر كأشخاص، ويؤتى بالإنسان ويوضع عمله في ميزان ويوضع هو في ميزان، لأن هذا الميزان له قيمته. والدليل على ذلك: ساق ابن مسعود أثقل عند الله في الميزان من جبل أحد. أما ميزان الصحائف فيختلف. وقوله صلى الله عليه وسلم: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة»، فمعناها يوضع رجل في الميزان، وميزان آخر هو ميزان الصحائف الذي له كفتان. ومرورًا بالصراط الذي هو على جسر جهنم، الذي هو جسر على متن جهنم، أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف، وتمر عليه أمم الأولين والآخرين.

كل هذه المفردات بعيدة عن أذهاننا، غائبة عن تصوراتنا، نتعامل معها أحيانًا بالمسلّمات وأحيانًا بالثوابت، ولكن أثر هذه المفردات والثوابت والعقيدة في سلوك الناس ضعيف. أن يظن الإنسان أنه يقف أمام الله لفصل القضاء، هذا يرتّب عليك ردّ الحقوق، وتحرّي الحلال، والابتعاد عن المحرمات، ورعاية الحقوق، وحفظ الحدود، واجتناب النواهي، وإتيان الحسنات، والإكثار من الأجور، والإقدام على الطاعات، وكل ذلك قد يكون من الأمور الغائبة جدًّا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لذلك جاءت هذه المحاضرة، وهي طلب الإخوة في هذا المسجد من الشباب، قالوا: نريد حديثًا عن الغفلة. الغفلة التي لا تعني الإنكار؛ الغفلة تعني الإقرار ولكن مع النسيان. ويغفل الإنسان أول ما يغفل عن ربه، فلا يقبل بقلبه وكليته على مولاه، ولا يلجأ إليه، ولا يعظّمه، ولا يتعبّده، ولا يكثر من ذكره، وكل هذا ضرب من ضروب الغفلة: الغفلة عن ذكر الله، والغفلة عن الله تعالى. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ...﴾، نسوا الله، نسوا دينه، نسوا الإيمان، فلم يستحضروه في كل حركة من حركاتهم، ولا في كل مفردة من مفردات تعاملهم، ولا في كل حركة من حركات جوارحهم. ولذلك هذه الغفلة غفلة عظيمة، الغفلة عن الله.

يقول العلّامة ابن القيم: إن للقلوب شعثًا لا يلمّه إلا إقبال على الله، وإن للقلوب حزنًا لا يذهبه إلا الرضا بأقدار الله، وإن للقلوب أسًى وحسراتٍ لا يذهبها إلا الإقبال على الله والرضا به ومحبته. وهكذا القلوب، مع تقلبها وأمراضها وآفاتها، لا تحسن إلا بالرجوع إلى الله تعالى. وهذه غفلة عظيمة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾. نسوا الله، ليس نسيانًا إذا سألته عن الله أخبرك، ولكن نسيان من يعمل ولا يستحضر عند عمله أنه مساءَل وأنه محاسَب وأنه مجازى.

لذلك كان السلف أمرهم عجيب. يقول خارجة بن مصعب رحمه الله تعالى، وهو من تلاميذ عبد الله بن عون: صحبت ابن عون اثنتي عشرة سنة، في المدة التي صحبته فيها ليلًا ونهارًا، يمكن أن أقسم بالله أن الملائكة لم تكتب عليه شيئًا مما يغضب الله. ولذلك كانوا يحرصون على تربية النفوس وعلى تزكيتها. أوَلم يقل سلف الأمة؟ ومنهم وهيب بن الورد، قال: لَأَنْ أترك الغيبة مرة أحبّ إليّ من إنفاق جبل من ذهب في سبيل الله.

وجاء في ترجمة العلّامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، المفسّر الأصولي صاحب «أضواء البيان»، وترجم له الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد العزيز السديس إمام الحرم، قال: جلس في مجلسه رجل فوقع في الناس، فقال له: اسكت. فقال الرجل: السيئات عليك أم عليّ؟ السيئات دي عليّ ولا عليك؟ قال: عليك، وعليّ إن رضيت وسكتّ. إما أن تجلس في مجلس تفسير القرآن وعلومه بأدب القرآن، وإما أن تخرج. ثم قال: إنه لا يليق لشائبٍ مثلي أن يفرّط في الحسنات، فقتل الأولاد وذهاب الأموال أحبّ إليّ في عمري هذا من ذهاب الحسنات. النظر إلى الآخرة بميزان. يا إخوانا، الآخرة ميزان شنو؟ حسنات وسيئات. وين الحسنات؟ ما في زول يؤمن، يقول: الآخرة أنا أؤمن بالميزان، ويمشي يوم القيامة فاضي. ماشي تعمل شنو؟ ماشي تسوي شنو؟ ماشي فاضي.

ولذلك أيها الأحبة، الغفلة عن الله: كثير من الناس تجده غافلًا عن الله، غافلًا عن ذكر الله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾، وذلك باتباع الأهواء: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. ذلك بالغفلة عن الله ذكرًا وتعظيمًا وتمجيدًا وثناءً وإقبالًا وحبًّا وتوكّلًا واعتمادًا وذلًّا وانكسارًا وتعبّدًا ورقًّا وعبودية وتألّهًا وتقديسًا وتمجيدًا. أين هذا في حياتنا؟ أين تعظيم الله في حياتنا؟ إن لم نكن، أيها الأحبة، في غفلة، نحن حقيقةً في غفلة. أصبحنا نؤمن بالحياة المادية البحتة، ولا نوقن إلا بالمحسوسات، وهذا أثّر على إيماننا وعلى قلوبنا.

أيها الأحبة، أعطيك مثلًا عجيبًا، هذا المثل قصة أوردها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكى القصة على أصحابه، وهدف القصة التربية، ومغزاها مخافة الله في السر والعلن لمن عظّمه. هذا مغزى القصة. طيب، القصة تقول شنو؟ أنت إذا سمعتها ربما تنكر القصة، والقصة مخرّجة في الصحيحين، موجودة في البخاري ومسلم. قال عليه الصلاة والسلام: إنه كان فيمن كان قبلكم رجل، والدنيا مُلئت بالرجال، باع أخاه عقارًا، باع لأخيه بيتًا. الذي اشتراه أراد أن يزيد فيه، فلما حفر وجد جرّة، فإذا هي مملوءة ذهبًا. أخذ الجرّة وذهب بها إلى البائع وقال له: لقد وجدت في البيت جرّة مدفونة، لعلك نسيتها، وأتيت بها أردّ الحقوق إلى أهلها. قال البائع: والله لا علم لي بها، ولم أكن أعلم أن في البيت جرّة، وأنا قد بعتك العقار وأخذت الثمن، ولا أستحلّ الجرّة. قال عليه الصلاة والسلام: فتدافعاها حتى أتيا قاضيًا. فدفع القاضي الجرّة إلى البائع. قال: الأرض لك. قال: ولكن لم أكن أعلم أنها لي. قال للمشتري: أنت وجدتها، هي لك. قال: لمّا اشتريت لم أكن أعلم أن في باطن الأرض جرّة، وإلا لزدته في الثمن، فلا آخذ ما لا يحلّ لي. قال عليه الصلاة والسلام: فاحتار القاضي، لأن القاضي ذاته عنده دين. ما قال: صادرناها لصالح حكومة جمهورية السودان، ما قال كده. احتار، يسوّي شنو؟ فسألهما عن ذريتهما، فكان لأحدهما غلام وللثاني جارية، فزوّج الغلام بالجارية وأنفق عليهما جرّة الذهب.

أيها الأحبة، من وضع الآخرة نصب عينيه لا يغفل. والقرآن أخبرنا أن بعض الناس يسمع حديث الآخرة وهو غافل، قال سبحانه: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾. لذلك الغفلة عظيمة في حياتنا، غفلة عن الله تعظيمًا وإيمانًا. نرجع الأمور إلى غير أهلها، حتى في كلامنا لا نردّ الأمور إلى الله، لا نقول بقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾. الواحد تقول له: أها، اشتغلت؟ يقول لك: أي والله، قريبي بيعرف الوزير، والله كان ما كنا لاقينا الوزير ده كنا رحنا فيها. قول: والله، الله ما يريد لك. رئيس الجمهورية كان كتب لك ما تشتغل، رأيك شنو؟ كان كتب لك في الورقة رئيس الجمهورية ما تشتغل، رأيك شنو؟ في الكلام ده توحيد ولا ما توحيد؟ مستيقنين به؟ أنتوا اللي قاعدين هنا مستيقنين بالكلام ده؟ «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت». متأكدين؟ وكل شيء بيد الله، ينبغي أن يكون الأمر كذلك، هذه عقيدة المؤمن.

لذلك الغفلة، يا إخوان، شوف سبحان الله: حاتم الأصم عنده سبع بنات، أصغرهن لم تتحجب لأنها صغيرة، يعني ما لبست الحجاب لأنها شافعة، عمرها ثماني سنوات. جاء أمير الكوفة، وقد كان في رحلة صيد، جاء أمير الكوفة ودخل الكوفة، وطرق باب حاتم الأصم لأنه عطش، ومعه حاشيته. طرق الباب فخرجت

إليهم بنت صغيرة، قالوا: اسقنا ماءً. سقتهم بهمّة ونشاط. شربوا، فأراد أمير الكوفة أن يُسدي إليها معروفًا، وكان يحمل مالًا كثيرًا، فأخرج من جيبه صُرّة ووضعها أمام عتبة الباب. كل الحاشية فعلت فعل الأمير، وإن لم يريدوا، ولكن لا بد أن يجاملوا أميرهم، فامتلأ أمام الباب كوم من الدنانير والصُّرر. جعلت تنظر. مضى الأمير لحاله، وجعلت تنظر وتبكي. أخواتها الكبار أدخلوها وأغلقوا الباب وقالوا لها: ما يبكيك؟ قالت: نظر إلينا مخلوق بعين الرضا فرضيت عنا حاشيته فاستغنينا، فكيف إذا نظر الله إلينا بالرضا؟ إذا نظر إليك بالرضا يرضي عنك الخلق والعباد وإن لم يريدوا. وهذه لو عقيدة قوية تكون عقيدتك في الله، والله الملوك يجوا والرؤساء يجوا، والله كلهم يجوك. كان صدقت فوق ما بتجيك عوجة، عشان كده انت شغلك خليه كله مع ربنا. البشر دي امشي لهم، قدّم الطلب بعد ما تقوم الليل.

لذلك هذه المعاني، حتى أريك أن الغفلة حتى عن ثوابت الإيمان وعن محكمات اليقين. إخوانا، اليقين ده ينبغي أن يكون محكمًا. محكمات اليقين تتزعزع وثوابت الإيمان تتضعضع، متى؟ عند أقل موقف ومأزق، أقل مأزق الواحد فيه يقع فيه، يكذب ويلفّ ويدور ويحلف الكذب، يقول لك: يا مولانا، أنا حلفت المصحف، خلاص. ويا إخوانا، الحياة الآن، نسأل الله السلامة والعافية، قائمة على، إن صح التعبير، اللفّ والدوران، من أي حدّ شفتها، من المسؤولين إلى غيرهم، لأنه فسدت بصائر الناس وأخلاقهم. كده وريني زول بيدفع الضرايب الحقيقية؟ نادر إلا من رحم الله. ليه؟ لأن الحكومة كسبت الأموال ولكن أفسدت أخلاق الناس، وهذه أكبر خسارة. الحاكم الذي يكلّف شعبه ما لا يطيق يعوّد الشعب أسوأ خصلة في الإسلام: الكذب. خلّي الحاكم، أنت في بيتك، إذا حمّلت أطفالك ما لا يطيقون سوف يكذبون عليك. ولذلك الحكومات كسبت الأموال وخسرت الضمائر، خسرت البصائر. وهذا كلام علماء الاجتماع الإسلامي، قال ابن خلدون: والحاكم الذي يكلّف شعبه ما لا يطيق يجمع مالًا ويفقد ذممًا. يقول: تعال، عندك كم؟ مليونين؟ عليك ضرايب خمسة وعشرين ألف، ادفع، خلاص انتهى الكلام، حتى لو عنده مئتين مليون. سوف تجد مالًا قليلًا، ولكن سوف تجد الشعب قد عادت إليه قِيَمه وأخلاقه التي لا تُقدَّر بثمن، ولا تباع ولا تشترى، الأخلاق.

وقس على ذلك كل مفردات الحياة، الآن تكاد تقوم على الغفلة. المعاش استغرق أوقات الناس، الأرزاق أخذت جلّ تفكيرهم، صلة الإنسان بربه ضعفت. الذي يأتي متعبًا إذا صلى يقف أمام الله جسدًا بلا روح، وبدنًا بلا قلب، وصورة بلا جوهر ولا عقل. أيها الأحبة، أليس هذا هو واقع الغفلة؟ إذا كانت هذه هي الغفلة، فلها أسبابها. الغفلة لها أسباب كثيرة، ولكن جماع الغفلة في سببين أساسيين: السبب الأول ضعف البصيرة

في الآخرة، والسبب الثاني الركون إلى الدنيا والتعلق بها. ده هو اللي بيجيب الغفلة أصلًا، دي الأسباب الرئيسية للغفلة. وقس على ذلك المعاصي: تنفجر وتخرج من هذه الأسباب، وهذه تولّد الغفلة، المعاصي تجيب الغفلة.

البيئات الغافلة، يا إخوانا: رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتته صلاة الفجر في غزوة، في وادٍ، واستيقظ على حرّ الشمس، يعني بعد ما الشمس شرقت، أول مرة يصلي الفجر متأخرًا. كان متعبًا فرقد في هذا الوادي، وقال: من يكون أمينًا على صلاتنا؟ فقال بلال: أنا. ثم نام بلال. لمّا عاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا بلال، أَوَلم تقل إنك أمين على صلاتنا؟ قال: الذي أخذ بأعينكم أخذ بعيني، إن نومكم نوّمني. عمل شنو؟ اتوضّوا يصلّوا. قال رسول الله: لا نصلي في موضع غفلنا فيه عن ذكر الله. ما صلّوا فيها، طلع بعيد من الوادي مسافة، صلّى هناك، ما صلّى في نفس المكان. هذا يعني أن المواضع والأماكن والبيئات لها تأثير في شنو؟ في الغفلة. ولذلك أيها الأحبة، الغفلة كثيرة الجوانب: المعاصي، والبيئة، والركون إلى الدنيا، وضعف البصيرة في الآخرة، كل ذلك يولّد الغفلة عياذًا بالله. وطول الأمل، ده من التعلق بالدنيا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

يا إخوان، عشان الكلام ده ما يكون يعني كلام بغير أن نتلمّس الحقائق، أقول لك شيئًا. قال عليه الصلاة والسلام: «رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه». زول يكون براه، بينه وبين نفسه، يتذكّر الله وعظمته وتقصيره تجاه الدين، يبكي. هذا قليل. الإيمان بالملائكة: نؤمن بالملائكة إيمانًا قطعيًا، والإيمان بالملائكة يولّد تعظيم الله، لأن الله الذي خلق الملائكة، مع عظمتهم، أنت تتأمل في خلقه سبحانه. عشان كده قال: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. ملك له سبعة آلاف جناح، الجناح يسدّ ما بين المشرق والمغرب، الجناح الواحد، تأمّل! سبعون ألف ملك يدخلون البيت المعمور، يطوفون به ويمضون، ويأتي سبعون ألفًا آخرون، من طاف مرة لا يطوف إلى يوم القيامة من كثرة الذين يطوفون: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

تأمّل: الملائكة تكتب. هل أنت لما تتكلم وتقول تستشعر أن الملائكة تكتب؟ ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. الملائكة بتنزل، صلاة الفجر بتحضر، بتتفرق في الجوامع، بتحضر صلاة الفجر في الجوامع، بيكتبوا الناس اللي حضروا. بيكتبوا الحصل يوم الجمعة والعصر والمغرب والعشاء، والفضائيات والكورة والهلال والفريق

القومي، وكله بيتكتب. بالله ما في زول يستحي يمشي لله بصحيفته، فيها الكورة والهلال والحاجات دي، معلش، والمريخ برضه.

إذًا أيها الأحبة، الملائكة تكتب، ويوم الاثنين ده كله بيتكتب، ويوم الاثنين عصرًا يرفع العمل، أي زول فيه صحيفته: والكلام اللي قاله، والعمل، والنظرات، والتلفزيونات الشافها، حتى الجزيرة بيجيبوها، لأنه زول يقول لك: في الجزيرة بيجيبوا البنات، طبعًا بنات والله ما لابسات أي حاجة، لا في شعر لا في كتف، ويعاين الأخبار، برضه بيكتبوه، بيقول: حضر الأخبار وعاين البت، برضه بتتكتب. اها تمشي تقول الله شنو؟ أي شيء بيتكتب: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. وترفع الأعمال يوم الاثنين، يقول: فلان الفلاني دي أعماله. وفي ملائكة بتنزل يوم الاثنين العصر استلموا العمل، يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ترفع الأعمال إلى الله كل اثنين وخميس». الخميس العصر، يعني أمبارح، ربنا يسترنا، العمل مشى، الصحف مشت، يجيبوا اسمك وأنت جايب خبر؟ أنت الوقت ده تلقاك نايم، ولا راكب لك في رقشة، ولا راكب في الحافلات، السوق المركزي، ماشي الخرطوم، المهم ده كله بيتكتب. إبراهيم بن يزيد النخعي كان يوم الاثنين يكون صايمًا كما جاء في النص، ويبكي وقت العصر، بيبكي. الملأ تقول له: تبكي، مالك؟ يقول: الآن عملي يُرفع إلى الله، لا أدري أيتقبّله أم يردّه. ونحنا، والله، ثلاثمائة وخمسمائة خميس يمر علينا، والله ولا جايب خبر، رفعوه ولا ما رفعوه. نسأل الله السلامة والعافية.

والله يا إخوان غفلة كبيرة جدًّا. هذه مفردات وحقائق، أنا أودّ أن أتكلم عن الغفلة في ثوابت الإيمان الذي في النفس: التوكل، الاعتماد على الله، حب الله، اللجوء إلى الله، سؤال الله، اليقين والثقة في أمر الله وفي قدر الله، أن الرزق بيد الله، كل هذه المفردات صارت هنالك غفلة كثيرة عنها. هذا القسم الأول، وباختصار شديد.

القسم الثاني بعد الغفلة عن الله: الغفلة عن الآخرة. الغفلة عن الآخرة، يا إخوان، كده أنا أسأل أي زول فيكم: غير يوم الجمعة، في زول بيكلمك عن النار؟ بتلقى زول بيتكلم معك عن النار؟ في زول بيذكّرك بالجنة؟ في زول بيكلمك عن عذاب القبر؟ حتى المساجد، الخطب قليل ما يتناول الخطباء مسائل تتعلق بشنو؟ بالآخرة، يعني أشراط القيامة: الدجال والدابة والدخان، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف، وخروج الشمس من مغربها. طلوع الشمس من مغربها، يا أخي، ده الناس طوّلوا ذاتو ما سمعوا كلام زي ده. نحنا في غفلة شديدة.

يا إخوانا، الموت لا أظن أحدًا يجهله، وبيننا وبينه حجب الغيب. ولكن حكمة الباري سبحانه أن الناس يموتون، تتنوع أسبابهم، وفي ذلك دلالة وعظة لهم، سبحان الله، دلالات وقوارع في القرآن. قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾، حتلاقي الله، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا...﴾. هذه القوارع في القرآن، وقوارع في حياة الناس رأوها. رجل في مدينة من المدن، أغنى رجل في الولاية، مات. مات الرجل، ولا بد أن يموت، لأن الموت لا يفرّق بين الناس في المقابر. وزير من وزراء السودان السابقين رقد في المقابر، ده لو كان حي بيقدر يخش عليه في مكتبه؟ حكمة ربك، وراقد جنبه غفير، مرقدين سوا. ما عليك يا زول، ربك أراد كده، ودي آية وعظة للناس. الرجل الغني ده لما مات عنده بيت تسع طوابق، والبيت حدادي مدادي، ومين ما تخش من الباب سيراميك. لما مات جاء الناس، والوالي والمحافظ والتجار، وهو زول كان محسن، ربنا يرحمه، كان بيدي الناس المساكين، كلهم جو. يعني ربنا وعظ الناس موعظة عجيبة: لما ما لقوا عنقريب، شحدوا عنقريب الغفير بتاعه، مشتري من حر ماله. والغفير كان بيحبه لأنه أكرمه، أداهم بطيب نفس وقال لهم: شيلوه.

الموت ده أي زول بيعرفه، لكن يا إخوان، أنا أقول لكم بصدق: القضية كيف نموت، كيف يلقى الواحد منا ربه وهو راضٍ عنه؟ أم هارون العابدة، امرأة صالحة، سألها أبو سليمان الداراني، قال لها: يا أم هارون، أتحبين لقاء الله؟ قالت: أما وأنا قوية صحيحة فلا أحب لقاء الله، لأنه عند الموت «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله». قال: كيف يا أم هارون لا تحبين لقاء الله؟ قالت: إني إذا عصيت مخلوقًا استحييت أن ألقاه، فكيف بالخالق يا أبا سليمان؟ كيف بالخالق يا أبا سليمان؟

والسؤال اللي أنا بطرحه على نفسي هسه، يا إخوانا: نموت جاهزين؟ ولا في حقوق دا نمشي نرجعها، وفي ديون دايرين نمشي نردها؟ جاهزين حتى لو قالوا يشيلوا أرواحنا الآن؟ جاهز تلاقي الله كده؟ أتى عن بعض السلف، وهذا حماد بن سلمة شيخ البخاري، أنه لو قيل له إنك ستموت غدًا ما استطاع أن يزيد في عمله. لو قالوا باكر بتموت ما عنده ولا ركعة يزيدها، يوميًا يتعبّد عبادة من سوف يلقى الله غدًا. «والموت أقرب إلى أحدكم من شراك نعله». والله ما بعيد. لذلك الموت شيء عجيب: بعض الناس يموت محترقًا في طائرة، وغريقًا في بحر، وبحادث حركة، ومريض في المستشفى، كويس؟ وبسكتة قلبية، وهكذا. والنتيجة واحدة: أن الروح تفارق البدن، وأن الإنسان ينتقل إلى ربه. إخوانا، مفردات: «يتبعه ثلاث: ماله وولده وعمله، يرجع ماله

وولده وأهله ويبقى عمله». هذه مفردات ضعيفة عندنا. إذا مات الإنسان أتاه ملك الموت، فيقول الله لهم: شمّوا رأسه، فإذا شمّوا رأسه قالوا: وجدنا الصلاة في رأسه. قال: قلبه. قالوا: وجدنا الصوم في قلبه. شمّوا قدميه. قالوا: وجدنا القيام بقدميه. يقول الله لهم: عبد حفظني فحفظته.

لذلك أيها الأحبة، والله ليست المشكلة في أن نقرّ بالموت أو لا نقر، ولكن كيف نلقى الله. تأمّل السلف: آدم بن أبي إياس رحمه الله، في سكرات الموت غُطّي، غطّوه وخلاص بقى خلاص. ختم القرآن وهو مسجّى من أوله لحد آخره، قرأ القرآن من أول لحد آخر، ثم فتح عينه وقال: اللهم بحبّي لك ارفق بي في هذا المصرع، كنت أؤمّلك لهذا اليوم وأرجوك، لا إله إلا أنت، ثم قُضي عليه ومات. شيء عجيب.

أبو جعفر المقرئ لمّا وافته المنية، في سكرات الموت بكت بنته، وكان قد أغمض عينه، مغمض عينه يعني زي المغمى عليه. لمّا البنت بكت فتح عينه وقال لها: ما يبكيك يا بنيّتي؟ قالت: أبكي عليك ولموتك. قال: إن أباك لا يُبكى عليه. قال لها: إن أباك ختم القرآن في هذه الحجرة عشرة آلاف مرة. أتظنين أن الله يعذبني؟ والله لا يعذبني. ومات. ده إحسان الظن بالله.

إخوانا، الموت ده حكمته بالغة جدًّا. تلقى زول الله كاتب له موتة معينة. يا أخي، في ملائكة بتحضر، وملائكة عظيمة بتحضر. يا إخوانا، هذا الإحساس ضعيف جدًّا عندنا. بقي أن تعلم أن نوحًا عليه السلام، بعد أن قضى ألفًا إلا خمسين عامًا، وقد يكون هذا عمره في الدعوة، لمّا وافته المنية قالوا: صِف لنا الدنيا. قال: دار لها بابان، دخلت من الأول وخرجت من الآخر ولم أرَ شيئًا. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الدنيا يوم بُعثتُ في آخر ساعة منها. الدنيا مما الله خلقها، يوم الرسول جا في الساعة الأخيرة في اليوم ده. نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس تغيب على رؤوس الجبال، قال: «ما بقي من دنياكم إلا كما بقي من هذه الشمس أن تغيب».

لذلك أيها الأحبة، الآخرة ينبغي أن تكون حيّة في وجدان المؤمنين، كل شيء يذكّرهم الآخرة ويربطونه بالآخرة. يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر فيبكي، وقد جثا على ركبتيه حتى بلّ الثرى بدموعه، وقال: «أي إخواني، ألا لمثل هذا فأعدّوا»، يعمل لليوم ده. تأمّل، تأمّل كيف أن أي شيء، الشمس تريد أن تغيب، يربط ذلك بالآخرة. يقولون: إن الدنيا ولّت مدبرة، وإن الآخرة أتت مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

لذلك ينبغي أن نعيد إلى أنفسنا هذه المعاني. الدنيا نفسها الآن التي نعيشها تستغرقنا أكثر مما ينبغي ومما يلزم. أحاديث لو أننا سبرنا أغوارها، يعني وقفنا عليها وقوفًا حقيقيًّا، يمكن أن ندرك حقيقة الدنيا. يقول عليه الصلاة والسلام: «مثل الدنيا في الآخرة كمثل أن يضع أحدكم إصبعه في يمٍّ، فلينظر بم يرجع». قالوا: بنقطة أو نقطتين. قال: هي الدنيا، واليمّ هو الآخرة. نقطة. تخيّل الدنيا دي، الدنيا مش العالم اللي احنا عايشينه، العالم جزء من الدنيا، الدنيا مما الله خلق، الدنيا لحد يوم القيامة دي تسمى الدنيا، الدنيا دي كلها في الآخرة نقطة في بحر.

أعطيك حديثًا آخر. قال عليه الصلاة والسلام: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها». ركعتين في يوم واحد، مش يوم يعني، يوميًا ركعتين في كل فجر، سنة الفجر يوميًا، أي ركعتين تساوي الدنيا وما فيها. الدنيا فيها شنو؟ فيها كل العربات السمحة، والنسوان، والذهب والبترول، والبورصات والأسواق المالية والبنوك المركزية، عدد الدولارات في العالم، عدد العمارات الموجودة في العالم، عدد البيوت، عدد الركشات اللي في الصحافة، عدد الأمجادات. شفت الدنيا دي كلها بما فيها، شفت القصور الجمهورية. الركعتين بتاع الفجر خير من ده كله.

النار موجودة الآن، مخلوقة، النار موجودة ولا يعلم مكانها إلا الله. أما الجنان فإنها فوق السماوات، ولا يحيط أحد من الخلق بذلك علمًا. إذا كان ضرس الكافر في النار كجبل أحد، وما بين منكبيه إلى شحمة أذنه مسيرة ثلاثة أيام، عدد الكفار الموجودين في العالم اليوم أربعة مليارات وثمانمائة مليون موجودين الآن، ومما الله خلق الدنيا: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، وأغلبهم كفار. الواحد فيهم قدره جبل أحد، ده غير أمة محمد اللي ما بصلوا، والعلمانيين والبيطعنوا في الشريعة، والزناة والعصاة والمجرمين والمستهترين، دول كلهم بيدخلوا النار. الواحد ضرسه كجبل أحد. النار دي تكون قد كيف؟ الشمس تساوي الأرض ملايين المرات، الشمس ذاتها جزء من النار. بعدين الشدة فوق التصور البشري. حقيقة، نحن نتعامل مع الآخرة بعيدًا عن المفهوم اليقيني.

تأمّل هذه الجزئية: إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث عن حورية في الجنة، يقول إنها تستقبل زوجها وتصافحه. قال عليه الصلاة والسلام: «بأي يد تصافحه وبأي بنان تعاطيه؟ لو أن إصبعًا من أصابعها بدا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولو أنها في الدياجي، في الظلام، تبسمت لأضاءت ما بين المشرق والمغرب، ولو أنها تفلت في بحر مالح لجعلته عذبًا زلالًا، ولو طاقة ضفيرة من شعرها بدت لملأت ما بين المشرق والمغرب عطرًا، ولنصيف على رأسها...». القماش الخاتّه على رأسها: حورية

واحدة في الجنة، القماش على رأسها خير من الدنيا وما فيها، بالعربات وبالنفط وبالحكومات وبالذهب اللي في دبي، كل الذهب في العالم. شفت القماش اللي فوق رأس الحورية؟ تقول لي: الدنيا، دنيا شنو؟ الآخرة، كم هي المساحة التي أعطيناها من حياتنا للآخرة؟

يا إخوان، شوفوا السلف لمّا يقيسوا بين الدنيا والآخرة، بيطلعوا لك الدنيا دي ما فيها فائدة، ما عندها قيمة. قال الشافعي يحدّث عن القبر: القبر الذي لا فيه نور يدخل ولا هواء يلج، وصاحبه لو أنه يرقد في قبره هكذا لكان هيّنًا، لكنه تعاد إليه الروح في جسده. «سلوا لأخيكم التثبيت، فإنه الآن يُسأل». والله يا إخوان، أنا أودّ أن أسأل أي واحد منا سؤالًا: منذ الصباح حتى الآن، بغير الصلوات، هل سألتَ الله، سألتَ الله صادقًا، أن يجيرك من عذاب القبر؟ دعك من عذاب القبر، فقد تدّعي أنك مؤمن، هل سألتَ الله أن يجيرك من فتنته؟ لأن السؤال في القبر فتنة، وتلك آخر فتنة تمر على المؤمن. يسألونك وأنت مؤمن، يقعدوا زول مكفّن يقعدوا. تخيّل، تخيّل زول أنت أخذته في الحفرة دي، يُقعدانه فيجلسانه فينتهرانه. بنهر يسألوك لحد ما يقطعوا قلبك. «سلوا لأخيكم التثبيت، فإنه الآن يُسأل».

«نزل في القبر وهو يسمع قرع نعال أصحابه إذا ولّوا عنه مدبرين». شيء عجيب! تخيّل أنت في هذه الحفرة تسمع الضجيج والحركات، حتى أصوات النعال مع الأرض أنت تسمعها. وهو في قبره يحس ببدنه ويسمع، لأن السماع من خصائص البدن والجسد: قرع نعال أصحابه إذا ولّوا عنه مدبرين. ومنذ أن خرج من غرفة الغسيل وكُفّن وحُمل يرى مقعده من الجنة أو النار، يرى مقعده من الجنة أو النار وهو محتمل على السرير يرى.

يا إخوان، هذه الحياة التي في القبر قال عنها الشافعي: لو عاش الفتى، فتًى جلدًا، من عمره ألفًا من الأعوام، مالكًا أمره، ألف عام لم يتغير، لم يشب، لم يصبح عجوزًا، وهو شاب متنعمًا فيها بكل نفيسة، متلذذًا فيها بنعم عصره، لا يعتريه السقم فيها مرة، ولا تدري الهموم بفكره، ألف عام لا مرض ولا همّ. قال: ما كان ذلك كله مما يفي بمبيت أول ليلة في قبره. روى الطحاوي في «مشكل الآثار» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قضى الله على عبد في قبره مئة جلدة». وهو في قبره، وفي القبر يُعذَّب ولا يُحاسَب. فبكى، فقال الله: اجعلوها له سوطًا واحدًا. قال صلى الله عليه وسلم: «فلما ضُرب سوطًا واحدًا استحال قبره عليه نارًا»، القبر كله يتحول نارًا. فلما أفاق قال: دفّيتوني في شنو؟ قالوا: صليتَ صلاةً بغير طهور، ومررتَ على مظلوم فلم تنصره.

ولذلك أيها الأحبة، والله نحن بحاجة إلى أن نتذكر. ومتى غابت الآخرة عن الأذهان والتصورات فسدت السلوكيات وانحرفت الجوارح، والإنسان لا يحجبه عن المعصية ولا يردّه إلى الطاعة إلا مخافة الله والتعلق بالآخرة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا...﴾. ويا إخوان، ليكن كل واحد منا مع نفسه صادقًا، يقول: ماذا قدمت لآخرتي؟ قال سبحانه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، قبل أن تقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، لحياتي الحقيقية: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، أي الحياة الكاملة.

هذا غير بقية مفردات الآخرة: البعث والنشور والحشر. هذا الترتيب: يبعث ويحشر، بعد ذلك يأتي الموقف العظيم. وهذا موقف يوم واحد. يوم القيامة يوم واحد، الناس كلها واقفين عُراة. اليوم ده فيه شفاعة رسول الله الكبرى، وشفاعته أن يسأل الله بداية الحساب بس، مش ناس يخشوا الناس الجنة. الجن واقف، والإنس واقف، الملائكة ذاتها واقفين: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. في ذلك اليوم لا يتكلم إلا رسول الله، يشفع في الخلق، الجن والإنس والملائكة، والكافر والمؤمن، يقول: يا ربنا، طال علينا الوقوف، ابدأ الحساب. ومن الذي يجرؤ أن يكلّم الله؟ الأنبياء يقولون: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري. من طول الازدحام يقول إبراهيم: اللهم إني لا أسألك إسحاق ولا إسماعيل، ولكن أسألك نفسي. ويقول مؤمنون: اللهم أرحنا من هذا اليوم ولو إلى النار. ويبدأ الحساب بتطاير الصحف، ثم بوضع الميزان، ميزان الأعمال وميزان الأعيان، أي الأشخاص. فإذا وُزن جاز الناس الصراط بعد ذلك، وأما بعده فإما إلى جنة وإما إلى نار. هذه مواقف القيامة.

ونحن بحاجة إلى أن نراجع أنفسنا وأن نتعامل مع القيامة بالحقائق واليقين. ولا أظن أحدًا يؤمن بالقيامة يظلم: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾. لا أظن مؤمنًا بالقيامة يظلم ليؤخذ من حسناته، ولا أظن مؤمنًا بالقيامة يزهد في الطاعات ويستغني عن الحسنات.

أيها الأحبة، لعلكم من خلال مفردات هذه المحاضرة وكلماتها ومواقفها ومحطاتها قد استبان كل واحد منا أين الخلل في نفسه، وما علينا إلا أن نصلح قبل أن يفوت الفوات، وقبل أن نموت. ووالله أيها الإخوة نخشى على أنفسنا من سوء الخواتيم، نخشى على أنفسنا من سوء الخواتيم بعد العمل. ويا مقلّب القلوب، ثبّت قلوبنا على دينك: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. اللهم كما حفظتنا فيما مضى من عمرنا، اللهم احفظنا يا رب العالمين. اللهم اختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين يا رب

العالمين. اللهم اجعلنا من أهل الجنة ولا تجعلنا من أهل الغفلة يا رب العالمين. اللهم اصرف عنا الغفلة. اللهم إنا نعوذ بك من الغفلة والقسوة، اللهم إنا نعوذ بك من الغفلة والقسوة، اللهم إنا نعوذ بك من الغفلة والقسوة. وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

للاستماع إلى المادة وتنزيلها

mohamedsayed.com/sounds/إلى-متى-الغفلة/

تابع الحسابات الرسمية للشيخ

فيسبوك	يوتيوب	تيليجرام	قناة واتساب	إكس
MohammedSayedHaj	@msayedhaj	@msahaj	قناة الشيخ	@mohamedsayed_sd

الموقع الرسمي للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله · mohamedsayed.com